مجلة الحكمة للدراسات الأدبية و اللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 11 / العـدد: 04 (2023)، ص: 8-22

الفقد الإنساني في قصيدة النابغة الذبياني (سقى الغيث قبرا)

قراءة أسلوبية تحليلية

د. سالم محاد المعشني[1]
[1]جامعة ظفار – سلطنة عمان
salimalmashani@du.om

تاريخ الاستلام: 2023/12/10 تاريخ القبول: 01 /2024/01 تاريخ النشر: 2024/01/12

الملخص :

كشفت الدراسة لقصيدة الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني عن عاطفة إنسانية صادقة ، ونابعة من شاعر حكيم ونبيل ؛ شاعر يقيس مصلحته الذاتية بمصلحة الجماعة ، ويشيد بمناقب الخير ، ويدعو إلى الفضيلة ، ويؤمن بأن الموت حق ونهاية طبيعية وحتمية لكل الناس . ثم هو يقدم أفكاره من خلال لغة غاية في الجزالة والفصاحة وحسن السبك ، ومتانة البناء ، ويستمد من الطبيعة صوره التي أضفى عليها من بديع موهبته، وعمق ثقافته وخبرته مايروي به فضول متلقيه من متعة خيالية وبراعة فنية .

Summary :

The study of the poem of the pre-Islamic poet Al-Nabigha Al-Dhubyani revealed a sincere human emotion, stemming from a wise and noble poet; A poet who measures his self-interest with the interest of the group, praises the virtues of goodness, calls for virtue, and believes that death is a right and a natural and inevitable end for all people. Then he presents his ideas through a language of great elegance, eloquence, good casting, and solid construction.

التعريف بالشاعر:

النابغة الذبياني هو زيادة بن معاوية بن غيظ بن مرة بن ذبيان بن قيس بن مضر. ولد في عام 535م ، ويعتبر أحد أبرز الشعراء في العصر الجاهلي، وكان يمتاز بالبلاغة والأدب، ولديه الكثير من المعرفة . أحب الشعر والنثر وألقى القصائد والقصص، سمي بالنابغة لنبوغه في البلاغة وكانت كنيته (أبي أمامة) . أعتبر الذبياني أحد الحكام الذين يقارنون بين الأشعار ويختار المميز بينها، فكان العرب يحكمونه في المسابقات فيما بينهم . ذاع صيته في العصر الجاهلي، وتوفي عام (604م) . ولكن أشعاره مازالت حية كلما مر عليها الزمان زاد بريقها، واتضحت قيمتها وعظمتها.[1]

الهدف :

تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة تحليلية أسلوبية لمرثية الشاعر الجاهلي النعمان بن المنذر سقى الغيث قبرا ؛ بغية الوقوف على جمالياتها وذخائرها البلاغية واللغوية ، وللكشف عن الأبعاد الفكرية والعقدية والنفسية للشاعر.

المقدمة :

لاشك أن غرض الرثاء من أسمى وأصدق أغراض الشعر العربي على مر العصور ؛ وذلك لكونه يعتمل ويصدر من خلال عاطفة صادقة ؛ هذه العاطفة هي قسمة مشتركة بين كل الشعراء والناس ؛ إذ يجتمعون في نفس الشعور ، ويحسون سوية بالفجيعة والحزن . ويظل الموت منتهى الفقد لدى الإنسان ومادونه أهون ؛ ولكن اقتضت سنة الله – سبحانه وتعالى – وعدالته في خلقه أن تمر بهذه الحقيقة والحتمية – أي الموت – كل المخلوقات والكائنات ؛ والإنسان من ضمن هذه المخلوقات ؛ والعدالة تتجلى في أن الناس كل الناس على اختلاف

[1] ينظر، موقع المرسال ، 2022

طبقاتهم ومستوياتهم يشربون من كأس المنية دون استثناء وإن كان كل إنسان في هذه الحياة " يملك يقينا مزعجا عن حقيقة الموت " [2]

تأتي هذه الدراسة لمرثية الشاعر (النابغة الذبياني) من خلال قراءة وتحليل لوحاتها ومقاطعها ؛ أملا في الكشف عن الدواعي البلاغية والأسلوبية للنص ، ومن ناحية أخرى سبر أغوار هذا الشاعر الكبير والتعرف من عن كثب إلى فلسفته ، وحكمته ، وثراء معرفته بشؤون الحياة . ولقد كان لغرض الرثاء ، ومصيبة الفقد الدور الأهم في استنطاق رؤى هذا الشاعر ، وقراءة بواطنه ، ولانغالي إذا قلنا بأن عاطفة الشاعر الصادقة هي الطاقة التي أمدته بالألفاظ المجسدة لخصاله ، والمجسمة لأفعاله .(3) وظف الشاعر الزمن من خلال الأفعال التي شكل المضارع منها النصيب الأوفر ؛ كون الشاعر يشكو حزنه في حاضره ، وراوح بين الأساليب الخبرية والإنشائية ، ووظف الضمير الذاتي والجمعي ؛ ليرينا جانبا مهما من إنسانيته وعاطفته الصادقة تجاه الآخرين . واستنطق معالم الطبيعة مشخصا ومجسدا ؛ لتعميق صوره واستعاراته وتشبيهاته ، وزاوج – حسب مقتضى الحال – بين المعجم الجاهلي في قوة ألفاظه وبين المعجم الرومانسي في رقة وعذوبة المفردة ؛ خاصة في المقطع الخاص بالدعاء والسقيا للميت .

الدراسة :

يتجلى الفقد الإنساني في قصيدة النابغة الذبياني محل الدراسة من المقطع الأول للنص ؛ من خلال مفارقة ضدية بين دواعي الهوى ، وحلم الصبا والتصابي أيام الفتوة ، وبين استعجام الديار والمنازل وعدم تلبيتها صرخة الشاعر المحب ؛ نتيجة الشيب الذي يرتبط في " في ثقافة الشاعر ، وكذلك في الذهنية الإنسانية ،

[2] صدام علي صالح حمادي ، المثالية في شعر الرثاء الجاهلي ، مجلة جامعة الأنبار للغات والآداب ، العدد السابع والعشرون ، 2018 ، المقدمة ، ص: 1

بحقيقة أفول الحياة ، وأما الزمن الآخر فهو زمن ماضوي يفقد خاصية الاستمرار ، ويتسم بالانقلاب والتحول "(2)

والفقد لايرحم الإنسان ولا المكان ؛ لقد أجهز الزمن على المكونين ؛ وذلك من خلال فعل (البلى) الذي بقدرما زرع الشيب والهرم على سائر جسد الإنسان ، بقدرما غير ربع الدار وبدل من تضاريسها ؛ الأمر الذي من شأنه تعميق المأساة وتوسيع الفقد . ومن قلب هذه المأساة يلوح اسم (سعدى) حبيبة الشاعر واسحضاره هنا يأتي من قبيل الحنين إلى ذلك الماضي الجميل ، والفردوس المفقود . ولعل في دلالة الإسم (سعدى) مايشي بالانعتاق في – لحظة الإبداع – من الهم الذاتي الجاثم على صدر الشاعر " في سياق رحلة الشاعر الحالمة بالتخلص من سلطة الزمن ، وتجاوز محنة الفقد " [3] وعلى مر الدهور " نجد الشاعر العربي دائم التغني بشبابه ، شديد التعلق بفتوته ، نزاعا إلى ذلك الشباب ، وتلك الفتوة ، وهو بعد ذلك شديد الحنين إلى حياته الأولى . ويتغير عند هذا الشعور حينما يحس بضعف قوته ، وشدة عجزه ، وكلال بصره ، ودنو أجله ، ونهاية أمره ، وكم من الشعراء من تمنى عودة شبابه من جديد " [4]

دَعاكَ الهَوى وَاِستَجهَلَتكَ المَنازِلُ

وَكَيفَ تَصابي المَرءَ وَالشَيبُ شامِلُ

وَقَفتُ بِرَبعِ الدارِ قَد غَيَّرَ البِلى

مَعارِفَها وَالسارِياتُ الهَواطِلُ

أُسائِلُ عَن سُعدى وَقَد مَرَّ بَعدَنا

[3] ينظر عنيت بجمعة، ومقابلة رواياته ، د. نصرة الزبيدي ، ماوصلنا من شعر جنوب الهذلية ، دار نينوي ، دمشق 2011م ، ص : 16- 17

[4] يوسف محمود عليمات ، النقد النسقي ، تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي ، الأهلية للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن ، ط1، 2015 ، ص : 145.

عَلى عَرَصاتِ الدارِ سَبعٌ كَوامِلُ[5]

وعلى الرغم من أن مقطع (الهوى والشيب والحبيب) لايزيد عن ثلاثة أبيات إلا أن لحظة التذكر والسؤال " تنم عن وعي لديه بضرورة تحدي إيقاعات الزمن التي تسلبه كل قيمة نبيلة وجميلة في الحياة " [6]

فَسَلَّيتُ ما عِندي بِرَوحَةِ عِرمِسٍ

تَخُبُّ بِرَحلي تارَةً وَتُناقِلُ

مُوَثَّقَةِ الأَنساءِ مَضبورَةِ القَرا

نَعوبٍ إِذا كَلَّ العِتاقُ المَراسِلُ

كَأَنّي شَدَدتُ الرَحلَ حينَ تَشَذَّرَت

عَلى قارِحٍ مِمّا تَضَمَّنَ عاقِلُ

أَقَبَّ كَعَقدِ الأَندَرِيِّ مُسَحَّجٍ

حُزابِيَّةٍ قَد كَدَّمَتهُ المَساحِلُ

أَضَرَّ بِجَرداءِ النُسالَةِ سَمحَجٍ

يُقَلِّبُها إِذ أَعوَزَتهُ الحَلائِلُ

إِذا جاهَدَتهُ الشَدَّ جَدَّ وَإِن وَنَت

تَساقَطَ لا وانٍ وَلا مُتَخاذِلُ

وَإِن هَبَطا سَهلاً أَثارا عَجاجَةً

وَإِن عَلَوا حَزناً تَشَظَّت جَنادِلُ

وفي حضرة الفقد وقسوة الزمن يقف الشاعر منكسرا ، ولايجد حيلة سوى أن يسلي نفسه من خلال (الناقة / الراحلة) (فسَلَّيتُ ما عِندي بِرَوحَةِ عِرمِسٍ //

[5] يوسف عليمات، مرجع سابق ، ص : 149 .

[6] قحطان رشيد التميمي ، الشكوى في الشعر الجاهلي ، بحث منشور في موقع جوجل نت 1970 ، ص : 148

تخُبُّ بِرَحلي تارَةً وَتُناقِلُ) هذه الناقة ستسافر به ، وتحمله بعيدا عن الديار الدارسة وعن هذا المكان الموحش الذي تنكر له ؛ بعد أن غزاه الشيب وأفسد (دواعي الهوى) وأنكر عليه (التصابي) " وتعبر الناقة عن مظهر النمو العقلي والروحي في الشعر الجاهلي. والناقة ماهي إلا تعبير عن فكرة الثبات والقهر والصمود بسبب قوة الناقة وصبرها وتحديها لعوادي الزمن والطبيعة " [7] . هنا تبدو الناقة " كما أنها رمز للحياة المثالية التي ينشدها الشاعر وعاش مهمومًا، ومحرومًا منها، كما أنها رمز للنجاة في مسالك الصَّحراء الموحشة المقفِرة حين يسير فيها"[8]

يطيل الشاعر في لوحة الناقة ويخلع عليها كل صفات القوة . حيث "كونت الناقة معادلاً موضوعياً للشاعر وحققت له كل ما يريده " [9] ؛ فهي المُخَلِّصة، والمنجية من الهلاك، واللجوء إليها عند المحن . إن الناقة لم تعد وسيلة نقل فحسب إنما هي بمثابة الصديق المخلص الذي بمعيته يجد الشاعر كل ما من شأنه أن ينفس عنه ويعوضه عن الهم الذي لحق به ، وتبعده من خلال الترحال والسفر بعيدا عن مكان الألم والفقد .

أَضَرَّ بِجَرداءِ النُسالَةِ سَمحَجٍ
يُقَلِّبُها إِذ أَعوَزَتهُ الحَلائِلُ
إِذا جاهَدَتهُ الشَدَّ جَدَّ وَإِن وَنَت
تَساقَطَ لا وانٍ وَلا مُتَخاذِلُ
وَإِن هَبَطا سَهلاً أَثارا عَجاجَةً
وَإِن عَلَوا حَزناً تَشَظَّت جَنادِلُ

[7] ديوان النابغة الذبياني ، دار صعب ،بيروت ، طبعة 1980، ص : 207
[8] يوسف عليمات ، مرجع سابق ، ص : 149.
[9] حنا الحتي ، الناقة في الشعر الجاهلي ، دار الكتب العلمية ، 2007م

الفقد الإنساني في قصيدة النابغة الذبياني (سقى الغيث قبرا)

قراءة أسلوبية تحليلية

هذه الصورة التي رسمها الشاعر لقوة الناقة تكشف عن ذات إنسانية تبحث عن ذات أخرى ، فيها الكثير من أسباب التعزية للحالة النفسية المنكسرة والمسيجة بالخوف والقلق الواقعة في أتون السلب والقهر القسري لمآلات المصير الذي ينتظرها من سطوة الآخر النسق المهيمن والمتوعد بالانتقام (الوشاة الحساد) وهنا تبدو الناقة "في صورة مفعمة بمعاني الفتوة المعجونة بالمعرفة ، أو التجربة ، وقد تكون حيازة لمطاولة الذات ، وفرديتها ضداً على تحديات المفارقة أو الإقصاء التي تواجهها الذات فتعكس صورة الناقة جانباً من هذه المطاولة ، ولإبراز حدة الصراع " [10]

وَرَبِّ بَني البَرشاءِ ذُهلٍ وَقَيسِها
وَشَيبانَ حَيثُ اِستَهَلَتها المَنازِلُ
لَقَد عالَني ما سَرَّها وَتَقَطَّعَت
لِرَوعاتِها مِني القُوى وَالوَسائِلُ
فَلا يَهنَئِ الأَعداءَ مَصرَعُ مَلكِهِم
وَما عَتَقَت مِنهُ تَميمٌ وَوائِلُ
وَكانَت لَهُم رِبعِيَّةٌ يَحذَرونَها
إِذا خَضخَضَت ماءَ السَماءِ القَبائِلُ

في هذا المقطع تنفجر عاطفة الشاعر حزنا على على غياب (الملك / الممدوح/ المرثي) ويستحيل الفقد الذاتي إلى فقد جماعي ؛ فبعد أن كان الشاعر في مقدمة القصيدة يخاطب ذاته : دعاك الهوى ، استجهلتك المنازل ، ويستنكر التصابي في حضرة الشيب ، وينعي ذهاب مرحلة الزهو والتصابي نجده الآن يخاطب (بني البرشاء / ذهل وقيس / شيبان / الأعداء / مصرع الملك / تميم

[10] طاهر العتابي، فلسفة الموت والحياة في معلقة طرفة بن العبد، شبكة الألوهة ، مايو 2011

ووائل / القبائل) وهنا نعثر على حقل دلالي مهيمن على فكرة الشاعر يمكن تلخيصة في عبارة (الفقد الجماعي أو المجتمعي) فلم يعد الشاعر يشكو هما ذاتيا ؛ لكنه بات يشكو هما عاما ؛ ولم يعد الخطر يتهدده على المستوى الفردي ، بقدرما أصبح الهم يطال المجتمع برمته " والواقع أن المفردات لدى كل شاعر تحمل معنى روحيا خاصة بها ، والشاعر يعبر بها عن تفكيره وأحاسيسه . والحقول الدلالية مجموعة من المفردات تدل على مفهوم واحد " [11]

أو لنقل هي " مجموعة ترتبط دلالاتها ضمن مفهوم محدد ، أو قطاع متكامل من المادة اللغوية يعبر عن مجال معين من الخبرة والاختصاص " [12]، ونلاحظ توظيف أسلوب القسم في البيت الأول من المقطع (وَرَبِّ بَني البَرشاءِ ذُهلٍ وَقَيسِها) وهو من ضروب الإنشاء غير الطلبي ومن المعلوم في الدراسات الأسلوبية أهمية الجمل الإنشائية والخبرية في البناء اللغوي وتفاعلها في البنى الإيقاعية والدلالية . والقسم هنا هو الأنسب في مخاطبة الجماعة وبيان هول الخطر الذي ينتظرها بفقدان (المليك) فلقد كان الخليفة النعمان بمثابة الحصن المكين في سد غزوات القبائل ، و مجابهة الأخطار الخارجية للمجتمع العربي حين ذاك ؛ وقد أشار إلية الشاعر – أي الخطر - من خلال : (وكانت لَهُم رِبعِيَّةٌ يَحذَرونَها) وفي قوله : (إذا خضخضت ماء السماء القبائل) وفي قلب هذا المقطع تتعاظم محنة الفقد ، وتتقطع أوصال الشاعر من مخلال مفارقة ضدية استهجانية ، ومن خلال لغة عنيفة انفجارية شكل فيها التضعيف والمد الذخيرة اللغوية الأنسب لحمل المتلقي على التفاعل والاستجابة لهذا الخطاب المشحون بالإدانة والاستغراب لمن لايستشعر حجم فجيعة فقد (الخليفة / المليك)

---

[11] ينظر ، الناقة والصحراء في شعر الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) د. عمر عيد السليمان المومني ، كلية عجلون الجامعية -جامعة البلقاء التطبيقية الأردن ، ملخص الدراسة 2020 م.

[12] د. سعيد حسون العنبكي ، صورة الناقة في القصيدة الجاهلية ، بين الوظيفة الشعرية وإنتاج الدلالة الرامزة ، بحث منشور من خلال جوجل / نت ، ص : 405

الفقد الإنساني في قصيدة النابغة الذبياني (سقى الغيث قبرا)

قراءة أسلوبية تحليلية

لَقَد عالَني ما سَرَّها وَتَقَطَّعَت // لِرَوعاتِها مِني القُوى وَالوَسائِلُ

ثم تلعب الضمائر في هذا المقطع دورا بارزا في حصر أطراف المعادلة الإيجابية والسلبية : (أنا / الشاعر ، و(هم / المجتمع) ويبدو ذلك واضحا من خلال ياء المتكلم في (عالني) وهاء الضمير الجمعي في

(سرها) ويكون الشاعر هنا وقد تقطعت منه القوى والوسائل هو الصوت المنافح والضمير الحي أمام جمود وصمت الجماعة عن مآلات الحال بعد فقد (المليك) . وهذه الإدانة تحمل بعدا استشرافيا ، ورؤية بعيدة وعميقة للشاعر ؛ وكأنه بمشاعره الزائدة ، وموهبته الأدبية يرى مالايراه الآخرون .!! ومن ناحية أخرى " تكشف الصياغة اللغوية عن الموقف الذي تعيشه الذات الجمعية التي استبدلها الشاعر بالذات الفردية " [13]

يَسيرُ بِها النُعمانُ تَغلي قُدورُهُ

تَجيشُ بِأَسبابِ المَنايا المَراجِلُ

يَحُثُّ الحُداةَ جالِزاً بِردائِهِ

يَقي حاجِبَيهِ ما تُثيرُ القَنابِلُ

يَقولُ رِجالٌ يُنكِرونَ خَليقَتي

لَعَلَّ زِياداً لا أَبا لَكَ غافِلُ

أَبى غَفلَتي أَنّي إِذا ما ذَكَرتُهُ

تَحَرَّكَ داءٌ في فُؤادِيَ داخِلُ

وَأَنَّ تِلادي إِن ذَكَرتُ وَشِكَّتي

وَمُهري وَما ضَمَّت لَدَيَّ الأَنامِلُ

[13] جمال طالبي قرة ، قشلاقي ، دراسة أسلوبية ، في قصيدة ميدان الشهداء ، من ديوان انسكابات الربيع العربي ، للشاعر أحمد فراج العجمي ، أصفهان ، إيران (2021) ، ص : 12

حِباؤُكَ وَالعيسُ العِتاقُ كَأَنَّها

هِجانُ المَها تُحدى عَلَيها الرَحائِلُ

إن فقيدا بهذه الخصال ، وبهذه المكانة الاجتماعية العالية جدير بالبكاء عليه ، وحري بأن تتداعى على فقده أحياء العرب ، ويأتي تأثيث هذا المشهد متكئا على عنصر (الزمن) باعتبار أن أن الفعل لايمكن اجتراحه إلا من خلال (الحدث / الزمن) ، وكان للفعل المضارع الحضور الطاغي ، أو المهيمن في هذه الأزمنة باعتبار أفعال المضارعة" عامة في معظم النصوص الأدبية التي هي من نفس جنس الشعر، وما ذلك إلا لأن المرء يفكر أبدا انطلاقا من حاضره ؛ من أجل ذلك ، نجد هذا الحاضر يطغى في النصوص الأدبية على الماضي والمستقبل معا " [14]

يتمثل هذا المضارع في (يسير- تجيش – يحث – يقي – يقول - تقلي – يثير - ينكرون – تحرك) ، ثم نجد الفعل الماضي فقط في موضعين (ذكرت – ضمت -) وهنا تظهر المفارقة بين زمانيين مختلفين الماضي الذي لايشكل حضورا مؤلما ؛ لأنه يمثل زمن الرخاء والأمن ؛ لوجود النعمان ، والحاضر المفجوع بالفقد ؛ مما يجعل دائرة الحاضر فيه تفسح الطريق للأفعال المضارعة . وتتعمق مصيبة الفقد في دواخل الشاعر من خلال ما تقذفه عاطفته الحزينة نحو الخارج عبر صور حسية قدمتها جمل ودوال صارخة بالصوت (تغلي قدوره – تجيش المراجل – يحث الحداة – جالزا بردائه – ما تثير القنابل – تحرك داءٌ). وفي مقطع الختام والخاص بنعي الملك النعمان بن المنذر، تتخفف اللغة من حمولة القوة والصخب ، وترق الألفاظ ؛ وكأننا بصدد لوحة طبيعية رومانطيقية ؛ وهذا ينسجم أدبيا مع المقولة الأدبية (لكل مقام مقال) ، أو (مناسبة الكلام لمقتضى الحال) فطبيعة الرثاء لا تختلف كثيرا في لغتها عن طبيعة الغزل أو الوصف الرومانطيقي ؛ من

[14] عمر، أحمد مختار. (1981م) ، دراسة الصوت اللغوي ، ط 2 ، 1982 ، القاهرة ، عالم الكتب، ص : 79

الفقد الإنساني في قصيدة النابغة الذبياني (سقى الغيث قبرا)

قراءة أسلوبية تحليلية

حيث عذوبة الألفاظ ، ورقة المباني . وإن كانت القصيدة الجاهلية يغلب على معجمها الأصوات المجهورة والشديدة والممدودة ؛ تناغما وانسجاما مع طبيعة المجتمع الجاهلي وطبيعة حياته ووسائله ، ونمط تفكيرة القائم على : التبدي ، والغزوات ، والفروسية والفخر القبلي . ويمكن تقسيم لوحة الخاتمة إلى مقطعين : مقطع الرثاء الحكمي ، ومقطع الرثاء وطلب السقيا للميت . يقول الشاعر في الأول :

فَإِن تَكُ قَد وَدَّعتَ غَيرَ مُذَمَّمٍ

أَواسِيَ مُلكٍ ثَبَّتَتها الأَوائِلُ

فَلا تَبعَدَن إِنَّ المَنِيَّةَ مَوعِدٌ

وَكُلُّ اِمرِئٍ يَوماً بِهِ الحالُ زائِلُ

فَما كانَ بَينَ الخَيرِ لَو جاءَ سالِماً

أَبو حُجُرٍ إِلّا لَيالٍ قَلائِلُ

فَإِن تَحيَ لا أَملَل حَياتي وَإِن تَمُت

فَما في حَياتي بَعدَ مَوتِكَ طائِلُ

فَآبَ مُصَلّوهُ بِعَينٍ جَلِيَّةٍ

وَغودِرَ بِالجَولانِ حَزمٌ وَنائِلُ

في هذا المشهد تتجلى الحقيقة الإيمانية ، والاستسلام للقضاء والقدر؛ من خلال أول بيتين (فَإِن تَكُ قَد وَدَّعتَ غَيرَ مُذَمَّمٍ // أَواسِيَ مُلكٍ ثَبَّتَتها الأَوائِلُ // فَلا تَبعَدَن إِنَّ المَنِيَّةَ مَوعِدٌ // وَكُلُّ اِمرِئٍ يَوماً بِهِ الحالُ زائِلُ) وقد وظف الشاعر من ضروب الأساليب الانشائية مايضمن له درجة عالية من الشعرية الأسلوبية والبلاغية ؛ فكثف أسلوب(الشرط والنفي ، والتوكيد ، والاستثناء) ، ثم ختم المقطع بصورة استعارية جميلة قائمة على عنصر التشخيص ، في دالتين

معنويتين أكسبهما الصفة الإنسانية يظهر ذلك في قوله فحزم ونائل وهما لفظتان مجردتان ، وبراعة التصويرهنا وجماله هنا ؛ مرده إلى خصب خيال الشاعر ؛ في رسم صوره من خلال " إسباغ الحياة الإنسانية على مالاحياة له كالأشياء الجامدة ، والكائنات المادية غير الحية [15]" أو في إكساب المجردات صفات الحسيات (وَغودِرَ بِالجَولانِ حَزمٌ وَنائِلُ)

وهو هنا – أي الشاعر – وفي حضرة الرثاء " يجسد شعورا إنسانيا نبيلا نابعا من عاطفة صادقة تجاه شخص لم يبق منه سوى ذكريات وأفعال حسنة تمثل في مجملها مرحلة الخلود بعد الموت ؛ لذا جاء الرثاء ليعبر عن الجانب الإنساني النبيل ولوعة الاشتياق للفقيد "[16]

لقد ذابت عاطفة الشاعر الذي بالأساس يشكو – على المستوى الشخصي – فقدا ذاتيا مرده إلى تقلبات وتحولات الزمن بعد أن خطف منه أحلام الفتوة والقوة ، وذكريات اللهو والتصابي ، وبدأت خيوط الوهن المتمثلة في ظاهرة (الشيب) في حاضره ، تحل محل النعيم الماضوي . في مثل هذه المواقف تتفجر عاطفة الشعراء " فتنطلق من وجدانهم مشاعر عارمة هي المنتج الحقيقي لذلك الفن الجميل " [17]

لم يبق للشاعر إذن في صميم المعاناة والمرارة إلا أن يتشبث بقيم الرجولة والنبل من خلال مايفرضه شعر الرثاء من شعور صادق حيث في " شعر الرثاء يزداد الإحساس بعنف الحياة وقسوتها ؛ لأن الشاعر يعيش مع الرثاء تجربة الموت والفناء ، فتدور حياته خلف الدم المهدور ، والحق المغضوب " [18] ، وتتشبث

---

[15] جمال طالبي قرة ، مرجع سابق ، ص : 10

[16] مرتاض، عبد الملك. (د.ت)، بنية الخطاب الشعري ، الجزيرة: ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنو ، .ص : 26

[17] جبور، عبد النور ، المعجم الأدبي ، ط2 (1984)، بيروت: دار العلم للملايين ، ص : 67

[18] صدام علي صالح حمادي ، مرجع سابق ص: 1

عاطفته المجروحة أصلا وتندغم في المصاب الجديد ؛ وقد يكون ذلك من قبيل العزاء الذي يخفف من وطأة الشعور النفسي الذي يغلي ويمور في داخله .

ثم نجد الشاعر في المقطع الأخير من لوحة (الفخر والرثاء) يدعو بالسقيا ، ويستدر عطف السماء ؛ لتجود بالرحمة من خلال الغيث الذي سيزرع (الريحان والمسك والعنبر ، والحوذان ، والعوف المنور) وكل هذه الدوال المنتزعة من حقل الطبيعة تشي بالخير والخصب والنماء ؛ وهذه النهاية التي يريدها الشاعر للفقيد ، أو هي المحصلة التي يجاهد الشاعر عبر مشاهد ولوحات النص ليصل إليها ؛ وتمثل هذه الحقيقة نزوع الشاعر الجاهلي إلى البعد الآخر / الغيبي ، وفيها من الفطرة السوية مايكشف عن حقيقة إيمانية مترسخة في روح ووجدان الإنسان قبل أن تفسد عليه تلوينات الحياة ، وبهارجها الآنية – في الحياة الدنيا - فطرته السليمة المتمثلة في توحيد الله – عز وجل - وحتمية المصير الذي ينتظر المخلوقات في الحياة الآخرة ، أو عالم الغيب.

سَقى الغَيثُ قَبراً بَينَ بُصرى وَجاسِمٍ

بِغَيثٍ مِنَ الوَسمِيِّ قَطرٌ وَوابِلُ

وَلا زالَ رَيحانٌ وَمِسكٌ وَعَنبَرٌ

عَلى مُنتَهاهُ ديمَةٌ ثُمَّ هاطِلُ

وَيُنبِتُ حَوذاناً وَعَوفاً مُنَوِّراً

سَأُتبِعُهُ مِن خَيرِ ما قالَ قائِلُ

ثم يأتي في الختام (البكاء) وجمال وصدق مشاعر البكاء هناء تكمن في جمال الصورة الاستعارية التي بناها الشاعر على التشخيص ؛ فلم يعد الإنسان وحده الذي يبكي ولكن الأرض والوطن إيضا يبكيان من خلال (حارث الجولان - وحوران) وهذ يعمق الفجيعة إلى آخر مداها ، ويعظم من شأن الفقيد ويعلي

قدره ومنزلته .ثم يوسع الشاعر دائرة الفقد ليتجاوز بها البعد العربي ،إلى البعد الإنساني ؛ فلم تعد (غسان) وحدها مفجوعة ؛ وإنما (الترك ورهط الأعجمين وكابل) وهذا المشهد الحزين " مدعاة لتحريك صدق العواطف ، وإطلاق العنان لها وفك قيودها [19] . وفيها بعد فلسفي في تخليد الذكرى والتشبث بالبقاء أمام إرادة الفناء .

بَكى حارِثُ الجَولانِ مِن فَقدِ رَبِّهِ
وَحَورانُ مِنهُ مُوحِشٌ مُتَضائِلُ
قُعوداً لَهُ غَسّانُ يَرجونَ أَوبَهُ
وَتُركٌ وَرَهطُ الأَعجَمينَ وَكابُلُ

[19] حسن سعيد لطيف ، تجربة الموت في شعر الخنساء بين الواقع والمثال ، مجلة آداب ذي قار ، العراق ، 2011 ، ص : 73.

الخاتمة :

للفقد الإنساني تجليات ومظاهر عديدة ، إن كانت على المستوى الذاتي أو الجمعي . في قصيدة الشاعر النابغة الذبياني (دعاك الهوى واستجهلتك المنازل) التي تعرضت لموضوع الفقد الإنساني بداء بما آل إليه مصير الشاعر من وهن وضعف ، وتنكر ديار الأحباب له ، وصولا إلى ذلك الفقد الجمعي الكبير وهو موت الملك (النعمان بن المنذر). قدم النابغة قصيدته من خلال عاطفة صادقة فيها من العمق الإيماني ، والبعد الفلسفي الغيبي ، والموقف النبيل مايرفع كثيرا من منزلة هذا الشاعر الحكيم . وفي الصياغة الفنية وظف الشاعر من التقنيات اللغوية : إيقاعا وبلاغة ، وأسلوبا كل ما من شأنه أن يسمو بالنسيج الفني للقصيدة ، ويعلي من شعريتها وجمال بنائها لترتقي إلى مصاف القصائد الخالدة ، في أبهى وأنصع صفحات ديوان الشعر العربي .